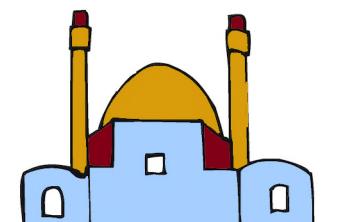


حَالَيفَ الدكتورعَبِالرحمٰن َ لأفت البَياشَا



بيت المقدس







" يضرب الحصار الاقتصادي على قريش"

ثمامة بن أثال

في السَّنَةِ السادِسَةِ للهِجْرَةِ عَزَمَ الرسولُ صلواتُ اللَّهِ عليه عَلَىٰ أَنْ يوسِّعَ نِطاقَ دَعْوتِهِ إِلَىٰ اللَّهِ ، فَكَتَبَ ثمانِيةَ كُتُبٍ إِلَىٰ ملوكِ العربِ والعَجَمِ ، وَبَعَثَ بها إلىٰ الإسلام ِ .

وكان في جُمْلَةِ مَنْ كاتَّبَهُم « ثمامَةُ بنُ أَثال الحنَفِيُّ » .

ولا غَرْوَ(١) ، فَتُمَامَةُ قَيْلُ(٢) مِنْ أَقْيَالِ العربِ في الجاهلية . . .

وسيِّدٌ من سادات بني حنيفَةِ المَرْموقين . . . ومَلِّكُ من مُلوكِ اليمامَة الذين لا يُعْصَىٰ لهم أمْرٌ .

* * *

تَلَقَّىٰ ثُمَامَةُ رسالةَ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالزِّرايَةِ (٣) والإعراض . . . وأُخَذَتْه العِزَّة بالإِثم ِ ؛ فأصَمَّ أذنيه عن سماع ِ دَعْوَةِ الحقِّ والخَيْرِ . . .

ثم إنَّه ركبَه شيطانُه فأغراه بِقَتْل رسول ِ اللَّهِ ﷺ وَوَأَدِ دَعْوتِه معه ، فدأب يَتَحَيَّنُ الفُرَصَ للقَضاءِ عَلَىٰ النبيِّ حَتَّىٰ أَصابَ منه غِرَّة (٤) ، وكادَتْ تَتِمُّ الجريمَةُ

(١) لا غرو : لا عجب .

(٣) الزُّراية : الاحتقار .

(٢) القيل: الملك والرئيس سمي بذلك لأنه إذا قال قولاً نفذ . (٤) الغرة : الغفلة .

الشَّنْعَاءُ لولا أنَّ أَحَدَ أَعمام « ثُمامة » ثناه عَنْ عَزْمِهِ في آخرِ لحظَةٍ ، فنجَّىٰ اللَّهُ نبيَّه من شرِّه .

لَكِنَّ ثَمَامَةَ إِذَا كَانَ قَدْ كَفَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلُواتُ اللَّهِ عَلَيه ؛ فإنه لَمْ يَكُفِّ عَن أَصْحَابِهِ ، حَيْثُ جَعَلَ يَتَرَبَّصُ(١) بهم ، حتَّىٰ ظَفِرَ بِعَدَدٍ مِنهم وقَتَلَهم شَرَّ قِتْلَة ؛ فأهْدَرَ(٢) النبيُّ عليه الصَّلاةِ والسَّلامُ دَمَه ، وأَعْلَنَ ذلك في أَصْحَابِهِ .

* * *

لم يَمْضِ عَلَىٰ ذلك طويـلُ وقت حتَّىٰ عـزمَ ثُمامَـةُ بـنُ أَثالٍ علَىٰ أَداءِ العُمْرَةِ ، فانْطَلَقَ من أرضِ اليمامةِ مُوَلَّيـاً وَجْهَه شَـطْرَ مكَّةَ ، وهـو يُمَنِّي نفسَه بالْطوافِ حولَ الكَعْبَةِ والذَّبْحِ لِأَصْنَامِها . .

* * *

وبينا كان ثُمامةً في بَعْض طريقهِ قريباً من المدينةِ نَزَلَتْ به نازلَةً لم تَقَعْ له في حسبانٍ .

ذلك أنَّ سَرِيَّةً من سرايا رسول ِ اللَّهِ صلواتُ اللَّهِ عليه ، كانت تجوس (٣) خلالَ الديار خَوْفاً من أنْ يطرُقَ المدينة طارِقٌ ، أو يُريدَها مُعْتَدٍ بِشَرٍّ .

فأسَرت السَّريةُ ثُمامةً ـ وهي لا تَعْرفُه ـ ، وأَتَتْ به إلىٰ المدينَةِ ، وشدَّتُهُ إلىٰ ساريةٍ من سَوارِي المسجدِ ، مُنتَظِرَةً أن يَقِفَ النبيُّ الكريمُ بنفْسِه علَىٰ شأنِ الأسير ، وأنْ يَأْمُرَ فيه بأَمْره .

ولما خرج النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إِلَىٰ المسجدِ ، وهَمَّ بالدُّخولِ فيه رأَىٰ ثُمِامةَ مَرْبوطاً في السَّاريةِ ، فقال لأصحابه :

(٣) تجوسُ : تدور وتتنقُّل

⁽١) يتربص بهم : ينتظر فرصة ليلحق بهم شراً .

⁽٢) أهدر دمه : أباح دمه .

(أَتَـدْرون مَنْ أَخَذْتُم ؟)

فقالوا : لا يا رسولَ اللَّه .

فقال: (هذا تُمامَةُ بنُ أَثالٍ الحنفيُّ ، فأحْسِنوا أسارَه(١) . .) .

ثم رَجَعَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إِلَىٰ أهلِه وقال :(اِجْمعوا ما كان عِنْدَكُمْ من طعام وابْعَثوا به إِلَىٰ ثُمامةَ بنِ أَثال . . .) .

ثم أَمَرَ بِنَاقَتِهِ أَن تُحْلَبَ له في الغُدُوِّ والرَّواح، وأَن يُقَدَّمَ إِليه لَبنُها . . . وقد تَمَّ ذلك كلَّه قبل أَنْ يَلْقاه الرسولُ صَلواتُ اللَّهِ عليه أَو يُكَلِّمَه .

* * *

ثم إِنَّ النبيِّ عَلِيُ أَقْبَلَ على ثُمامةَ يريدُ أَنْ يَسْتَدْرِجَه إِلَى الإِسلام وقال: (ما عِنْدَك يا ثُمامة ؟).

فقال : عندي يا محمدُ خيرٌ . . . فإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَم (٢) . . . وإن تُنْعِم (٣) تُنْعِم (٣) تُنْعِم (٣) تُنْعِم على شاكِرٍ . . . وإنْ كنتَ تريدُ المالَ ؛ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ ما شِئْتَ .

فَتَرِكَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلُواتُ اللَّهِ عَلَيْهُ يَوْمَيْنِ عَلَىٰ حَالِهُ ، يُؤْتَىٰ لَهُ بِالطَّعَامِ وَالشّرابِ ، ويُحْمَلُ إِلَيْهُ لَبَنُ النَّاقَةِ ثم جاءه ، فقال :

(ما عِنْدَك يا ثُمامةُ ؟).

قال : ليس عندي إلَّا ما قُلتُ لكَ من قَبْلُ . .

فإِن تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شاكِرٍ . . .

وإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ

وإِنْ كنتَ تريدُ المالَ فَسَلْ تُعْطَ منه ما شِئْتَ .

(٢) ذا دم : صاحب دم ، أي رجلًا أراق منكم دماً .

(٣) تُنْعِم : أي تنعم بالعَفْو .

⁽١) أحسنوا أسارَه : أحسِنوا معاملته . (٣) تُـ

فتَرَكه رسولُ اللَّهِ ﷺ ، حتَّىٰ إذا كان اليومُ التالي جاءَه فقال :

(ما عندك يا ثمامة ؟). فقال: عِنْدي ما قلتُ لك... إِنْ تُنْعِم تُنْعِمْ على شاكِرٍ. وإِن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ . وإِن كنتَ تريدُ المالَ أَعْطَيْتُك منه ما تشاء.

فالتفتَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلىٰ أصحابِه وقال: (أَطْلِقوا ثُمَامَةَ ...). فَالْتَفْتُ وَيَالَ : (أَطْلِقوا ثُمَامَةَ ...).

* * *

غادر ثمامةُ مَسْجِدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ومضَىٰ حتَّىٰ إِذَا بِلغَ نَخْلًا في حواشِي المَّدينةِ (١) _ قريباً من البقيع (١) _ فيه ماءُ أناخ راحِلَته عِنْدَه ، وتَطَهَّرَ من مائِه فأَحْسَنَ طهورَه ، ثم عادَ أَدْراجَه إِلىٰ المَسجدِ .

فما إِن بَلَغه حتَّىٰ وقفَ على ملاً (٣) من المسلمين وقال : أشهدُ أن لا إله إِلَّا اللَّه ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه . ثم اتَّجَه إِلىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ وقال :

يا محمدُ ، واللّهِ ما كان علىٰ ظَهـرِ الأرضِ وجهُ أَبغَضُ إِليَّ مِنْ وَجْهِك ، وقَدْ أَصْبَحَ وجهُك أحبّ الوجوهِ كلّها إِليَّ . . . وقَدْ أَصْبَحَ وجهُك أحبّ الوجوهِ كلّها إِليَّ .

واللَّهِ ما كان دينٌ أبغضَ إِليَّ من دينِك ؛ فأصبَحَ دينُك أحبَّ الدين كلُّه إِليَّ .

وواللَّه ما كان بلدُ أبغضَ إليَّ من بَلَدِك ؛ فأصبَحَ بلدُك أحبَّ البلادِ كلُّها إليَّ .

⁽١) حواشي المدينة : أطراف المدينة .

⁽٢) البقيع : بقعة في أطراف المدينة كانت كثيرة الشجر ثم أصبحت مقبرة دُفِنَ فيها كثيرٌ من الصحابة .

⁽٣) ملأ : ج<mark>ماعاتِ .</mark>

ثم أَرْدَفَ قائلًا: لقد كنتُ أَصَبْتُ في أصحابك دَماً (١) فما الذي توجِبُه علي ؟

فقال عليه الصّلاة والسّلامُ :(لا تَثْريبَ^(٢) عليك يا ثمامةُ . . . فإن الإِسلامَ يجبُّ ما قَبْله^(٣) . . .) .

وبَشَّرَه بالخيرِ الذي كَتَبَه اللَّهُ له بإسْلامِهِ .

فَانْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ ثَمَامَةً وقال :

واللَّهِ لَأُصيبَنَّ مِنَ المشركين أَضعافَ ما أَصَبْتُ من أَصْحَابِك ، ولأَضَعَنَّ نَفْسي وسيْفي ومَنْ معي في نُصْرتِك ونُصْرةِ دينِك .

ثم قال : يا رسولَ اللَّهِ إِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْني وأنا أريدُ العُمْرَةَ فماذا تَرَىٰ أَنْ أَفْعَلَ ؟

فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : (إمْضِ لَأَدَاءِ عُمْرَتِك ولكنْ على شرْعَةِ اللَّهِ ورسولِهِ) ، وعَلَّمَه ما يقومُ بِه مِنَ المنَاسِك .

* * *

مضَىٰ ثُمامةُ إِلَىٰ غايتهِ حتَّىٰ إذا بلغَ بَطْنَ مَكَّةَ وقَفَ يُجَلْجِلُ بِصَوْتِه العالي قائلًا :

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْك . . .

لَبَّيْك لا شريكَ لكَ لَبَّيْك . . .

إِن الحمدَ والنُّعْمَةَ لكَ والملك . . .

لا شريك لك » . . .

⁽١) أصبت في أصحابك دماً : قتلت منهم رجالًا .

⁽٢) لا تثريب عليك : لا لوم عليك .

⁽٣) يجبُّ ما قبله : يقطع ما قبله ويمحوه .

فكان أُول مسلم على ظَهْرِ الأرض ِ دَخَلَ مَكَّةَ مُلَبِّياً .

* * *

سَمِعَتْ قريشٌ صوتَ التَّلْبيةِ فهبَّتْ مُغْضَبَةً مَذْعورةً، واستَلَّتِ السيوف من أغمادِها ، واتَّجَهَتْ نحوَ الصوتِ لتبطش بهذا الذي اقْتَحَمَ عليها عرينَها .

ولما أَقْبَلَ القومُ على ثُمامَةَ رفعَ صوتَه بالتَّلْبِيَةِ ، وهو يَنْظُرُ إليهم بِكِبْرِياء ؛ فَهَمَّ فتى من فِتْيانِ قريشٍ أن يُرْدِيَه (١) بسهم ٍ ، فأُخذوا علىٰ يديْه (٢) وقالوا :

وَيْحَك أتعلم من هذا؟!

إِنه ثُمامةُ بنُ أثال ٍ ملكُ اليمَامَةِ . . .

واللَّهِ إِن أَصَبْتُموه بِسوءٍ قَطَعَ قومُه عَنَّا الميرَة (٣) وأماتونا جُوعاً .

ثم أُقبَلَ القومُ على ثمامَةَ بعدَ أَنْ أعادوا السيوفَ إِلَىٰ أغمادها وقالوا: ما لكَ يا ثُمامَةُ ؟!!

أَصَبَوْتَ وتركتَ دينَك ودينَ آبائك؟!!

فقال : مَا صَبَوْتُ وَلَكِنِّي اتَّبِعتُ خيرَ دينِ . . . اتبعتُ دينَ محمدٍ .

ثم أَرْدَفَ يقول: أقسم برَبِّ هذا البيتِ ، إِنَّه لا يَصِلُ إِليكم بَعْدَ عَودَتي إِلَىٰ اليمامَةِ حَبَّةٌ من قَمْحِها أَو شَيءٌ من خيراتِها حَتَىٰ تَتَبعوا محمداً عن آخِرِكم . .

* * *

اعْتَمَر ثمامَةُ بنُ أُثال على مرأى من قريش كما أمرَه الرسولُ صلواتُ اللّهِ عليه أن يعتمر . . .

وذَبَحَ تقرُّباً لِلَّه لا لِلأنْصابِ(٤) والأصْنام ، ومضَى إلى بلادِه فأَمَرَ قومَه أن

⁽١) يرديه : يقتله . (٣) الميرة : المؤونة .

 ⁽٢) فأخذوا على يديه : منعوه .
(٤) الأنصاب : ما عُبِد من دون اللَّه من تماثيل ونحوها

يَحْبِسوا المِيرَةَ عن قُرَيْشٍ ؛ فَصدَعوا بأَمْرِه واسْتجابوا له ، وحبَسوا خيراتِهم عن أَهْل مكَّةَ.

* * *

أَخَذَ الحِصارُ الذي فَرَضَهُ ثمامةً على قريش يَشْتَدُّ شيئاً فشيئاً ، فارتفعَتِ الأَسْعارُ ، وفَشَا(١) الجوعُ في الناس واشتدَّ عليهم الكَرْبُ ، حتَّىٰ خافوا على أَنْفُسِهِم وأبنائِهم من أَنْ يَهْلَكُوا جوعاً .

عند ذلك كَتَبوا إِلَىٰ رسول اللَّه ﷺ يقولون :

إِنَّ عَهْدَنا بِكَ أَنَّكَ تَصِلُ الرَّحمَ وتَحُضُّ علىٰ ذلك . . .

وُهَا أَنْتَ قَد قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا ، فَقَتَلْتَ الآباء بِالسيفِ ، وأَمَتَّ الأَبْنَاءَ بالجوع .

وإِن ثُمامةَ بنَ أَثالٍ قد قَطَعَ عَنَّا مِيرَتَنا وأضَرَّ بنا ، فإنْ رأيتَ أَنْ تكتبَ إِليه أَنْ يبعثَ إِلينا بما نحتاجُ إِليه فافْعَلْ .

فَكَتَبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى ثُمامة <mark>بأن يطْلِقَ</mark> لهم ميرتَهم فأطْلَقَها .

* * *

ظُلَّ ثُمامةُ بنُ أَثال ما امتدَّتْ به الحياةُ وفِيّاً لدينِه ، حافظاً لِعَهْدِ نبيّه ، فلمَّا الْتَحَقَّ الرسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالرفيقِ الأعْلَى ، وطَفِقَ العربُ يَخرجون من دين اللَّهِ زرافاتٍ (٢) ووحْداناً ، وقامَ مسيلمةُ الكذَّابُ في بني حنيفةَ يَدْعوهم إلى الإيمانِ به ، وقف ثُمامَةُ في وَجْهَه ، وقال لقومِه :

يا بني حنيفةَ إيَّاكم وهذا الأمر المظلم الذي لا نور فيه . . .

⁽١) فِشَا الجوع : انتَشَرَ .

⁽۲) زرافات : جماعات .

إِنَّه واللَّهِ لَشَقاءً كتَبه اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ علىٰ من أَخَذَ به مِنْكُمْ ، وبلاءً علىٰ من لَمْ يَـأْخُذْ به .

ثم قال :

يا بني حنيفةَ إِنَّه لا يجتمِعُ نبيَّان في وقتٍ واحدٍ ، وإِنَّ محمداً رسولُ اللَّهِ لا نبيَّ بعدَه ، ولا نبيَّ يُشْرَكُ معَه .

ثم قرأ عليهم : ﴿ حَم تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَليمِ * غافِرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التَّوْبِ شديدِ العِقابِ ذي الطَّوْلِ لا إِلَّهَ إِلَّا هو إِليه المَصيرُ ﴾ .

ثم قال : أينَ كلامُ اللَّهِ هذا من قول ِ مسيلمة : « يا ضِفْدَعُ نِقِّي ما تَنِقِّين ، لا الشَّرَابَ تَمْنَعين ولا الماءَ تُكَدِّرين » .

ثم انْحازَ بِمَنْ بَقِيَ على الإسلام ِ من قومِه وَمَضى يقاتِلُ المرتدينَ جِهاداً في سبيل ِ اللَّهِ وإعلاءً لكلمتِه في الأرض .

جَزَىٰ اللَّهُ ثُمامةَ بنَ أَثالٍ عنِ الإسلامِ والمسلمين خيراً . . . وأُكْرَمَه بالجَنَّةِ التي وُعِدَ المتقون(*) .

^(*) للاستزادة من أخبار ثمامة بن أثال انظر :

١ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢٠٤/١ طبعة مصطفى محمد .

٢ ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر: ٢ / ٣٠٥ ـ ٣٠٩ .

٣ - السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق السقا (انظر الفهارس).

٤ ـ الأعلام للزركلي ومراجعه : ٨٦/٢ .

